صيد خاطرة من المعجزة الخالدة

خاطرة حول نبوءة قيام دولة إسرائيل وسقوطها

أ. حسن ريان

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدمة: القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمتعبد بتلاوته والمتحدي به الإنس والجن والعالمين، ولم يتحد الله به الملائكة لأنهم ليس لهم اختيارات يعملون بها إنما هم يفعلون ما يؤمرون، فالقرآن يتحدى كل من ميزه الله بقدرة العقل والفكر والاختيار. وقبل أن نتحدث عن معجزة القرآن وخلود هذه المعجزة، فإننا يجب أولاً أن نحدد ما هي المعجزة؟

المعجزة هي خرق لنواميس الكون أو لقوانينه يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه ويثبتهم به ويؤكد للناس أنهم رسله تؤيدهم السماء وتنصرهم، والسماء حين تؤيد وتنصر تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

ومعجزات الله تتميز بأنها تتحدى من أرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه، لأن التحدي فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحدياً، وفوق هذا يمكنهم الله من الأسباب كلها، ثم بعد ذلك يعطل هذه الأسباب فلا يتم الفعل كما حصل في النار مع سيدنا إبراهيم عليه السلام وانشقاق البحر مع سيدنا موسى عليه السلام. فكان لابد أن يأتي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة من جنس ما نبغ فيه العرب وهم قوم بلاغة وفصاحة، فهاهي بلاغة القرآن تحدتهم وأعجزتهم.

كما أن القرآن الكريم تميز بعرض المعجزة لإثبات طلاقة القدرة الإلهية في الكون، فالإنسان المؤمن يلجأ إلى الله تعالى فيما تعجز عنه الأسباب، فالله قاهر ليس لقدرته قيود ولا حدود. لكن خلود الرسالة المحمدية اقتضى خلود المعجزة، فجاء القرآن الكريم بجوانب كثيرة من الإعجاز يتحدى به الله سبحانه وتعالى الإنس والجن إلى قيام الساعة، والقرآن له عطاء يتجدد مع كل جيل من أجيال المسلمين.

فلم يقتصر إعجاز القرآن على اللغة العربية وحدها، إنما إعجاز القرآن الكريم طاف المجالات المختلفة فقدم إعجازاً تاريخياً فريداً وإعجازاً طبياً مذهلاً وإعجازاً فضائياً مبهراً وإعجازاً فكرياً وتشريعياً دقيقاً وإعجازاً فيزيائياً متقدماً والكثير الكثير من أوجه الإعجاز.

ففي القرآن إعجاز لا ينتبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره، بل إن إعجاز القرآن موجود أحياناً في حرف.. حرف من القرآن الكريم يحمل إعجازاً رهيباً وهذا ما سنلاحظه في المثالين الذين سنتناولهما في هذا البحث.

وفي هذه الخاطرة سأتحدث عن مثال في الإعجاز التاريخي التنبوئي حيث ينبئنا الله بأحداث ستحدث في عصرنا هذا وفي السنوات القادمة قبل أن تقع. لكن قبل أن نبدأ هذه الخاطرة يجب أن يكون واضحاً في أذهاننا أنه مهما بلغنا من دراسة وتعمق في آيات القرآن الكريم فسيبقى هذا الكتاب العزيز غنياً قادراً على العطاء في كل زمان، وهذا سر خلود هذه المعجزة.

ولكي تكون هذه النقطة واضحة يجب أن نفرق بين شيئين اثنين في القرآن الكريم:

أولهما الأحكام الخاصة بمنهج العبادة وهي ما يحدده الله للبشر ليقوموا بعبادته بالطريقة التي حددها الله سبحانه وتعالى ليعبد في الأرض لا تغيير فيها ولا تبديل وإنما كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما فسرت في عهد نزول القرآن فلا اجتهاد في الصلوات الخمسة ولا في الزكاة ولا في الصيام.

وثانيهما الأشياء المتصلة بقوانين الكون والخلق.. وهي الأشياء التي لم يكن للعقل البشري الاستعداد العلمي وقت نزولها ليفهمها تماماً، مثل كروية الأرض والغلاف الجوي المحيط بالأرض وعلم الأجنة والزمن ونسبية الزمن وهي حقائق علمية تحدث عنها القرآن.

وقبل أن ننهي جولتنا الخاطفة هذه لا بد أن ننوه إلى أعظم معجزة في القرآن الكريم وهي معجزة الرحمة للعالمين أجمع. فمعجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي عين منهجه، ليظل المنهج محروساً بالمعجزة وتظل المعجزة محروسة بالمنهج.

خاطرة حول نبوءة قيام دولة إسرائيل وسقوطها . . إعجاز تاريخي . .

قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً، ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً، وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ

فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً} الإسراء من 1 إلى 7

وقال تعالى: {قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً، وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً، فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً، وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً}الإسراء100-104

التفاسير: إن جئنا للبحث عن تفسير هذه الآيات لوجدنا أن الله تعالى يخبرنا بأن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين، ففي أول مرة يرسل عليهم عباداً له يقضون عليهم ثم بعد ذلك يعود بني إسرائيل ويجتمعون ويمدهم الله بأموال وبنين ومعونة في العدد والعدة فيغلبون، ثم يرسل الله عليهم عباده مرة أخرى فيغلبونهم ويطردونهم من المسجد الأقصى، ويهددهم الله أنهم إن عادوا للفساد أعاد الله عليهم الهزيمة. لكن المفسرون اختلفوا في تأويل هاتين المرتين فنحن أمام عدد من التفاسير هي:

1. **المرتان الأولى والثانية وقعتا قبل الإسلام:** فالمفسرون كالطبري والزمخشري والرازي والقرطبي وابن كثير والبيضاوي والمحلي والسيوطي والشوكاني ذهب كلهم إلى أن المرة الأولى والمرة الثانية قد وقعتا قبل الإسلام.

المرة الأولى هي التي سلط بها الله عليهم ملكاً من ملوك فارس بعد أن قتلوا سيدنا زكريا ثم رد الله لهم الكرة فاستردوا ما كان أصاب أموالهم وقتل داوود جالوت، والمرة الثاني هي التي سلط بها الله عليهم بختنصر بعد أن قتلوا سيدنا يحيى، وأيد هذا القول كثير من المفسرين المحدثين مثل الشيخ سيد قطب.

2. **المرة الأولى وقعت قبل الإسلام والمرة الثانية وقعت بعد الإسلام:** ذهب عدد من المفسرين إلى أن المرة الأولى وقعت فعلاً عندما سلط الله على اليهود بختنصر، وعادوا في عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهزمهم النبي والصحابة ودخل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد الأقصى، والكيان

الإسرائيلي الغاصب في فلسطين الآن هو مرة ثالثة حذر منها القرآن كما سنبين ذلك لاحقاً. ومنهم من قال أن المرة الثانية هي عندما دخل الصليبين القدس واحتلوها.

3. **المرة الأولى وقعت بعد الإسلام والمرة الثانية تقع الآن:** ذهب الشيخ محمد متولي الشعرواي إلى أن المرة الأولى كانت في عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وها نحن نعيش الآن أحداث المرة الثانية فيما نعيشه الآن في هذا العصر في فلسطين من احتلال اليهود لها وقيام دولتهم الغاشمة فيها ، وأن المسلمون موعودون بهزيمتهم إن شاء الله.

4. **المرة الأولى تقع الآن والمرة الثانية لم تقع بعد:** ذهب رأي الدكتور طارق السويدان إلى أن تفسير هذه الآيات باعتقاده يكون بأن هذه المرة المعاصرة هي المرة الأولى وأن المرة الثانية لم تقع بعد، حيث أننا بعد أن نهزم اليهود بإذن الله سيعودون بقوة أكبر بعد استعطاف العالم وجمع الحشود لمحاربتنا من جديد.

تحليل: وسنتناول هذه التفاسير بعين المحلل مستعيناً بتفسير الشعرواي الذي كان عميق التحليل والتفصيل في معاني وكلمات الآيات، والذي دعم تفسيره بفيض من التوضيح النحوي والبلاغي، وبالاستفادة من التفاسير الأخرى كذلك. ولنبدأ مع الآية رقم 4.. حيث يقول تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً}

وقضينا إلى: حكمنا حُكْماً لا رجعةَ فيه، وأعلنَّا به المحكوم عليه، والقاضي الذي حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى. إنه سبحانه وتعالى القاضي العدل الذي لا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّي عليه أو يخدعه، وهو سبحانه صاحب كل السلطات، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه.

بني إسرائيل: هم اليهود، رغم أن البعض قال بأن المقصود هنا قد يطال النصارى، لكن هذا لا يصح لسببين الأول أن كلمة "بني إسرائيل" لم تطلق على النصارى أبداً في أي موضع من القرآن فلماذا تدل هذه بالذات على النصارى، والسبب الثاني واضح جلي في الآية رقم 2.. حيث يقول تعالى: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}

في الكتاب: أي التوراة، كتابهم الذي نزل على نبيهم، وهم محتفظون به وليس في كتاب آخر، فالحق سبحانه قضى عليهم. أي: حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به، حيث أوحاه إلى موسى، فبلّغهم به في التوراة، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على ألسنة الرسل، أَيُنفذونه وينصاعون له، أم يخرجون عنه ويفسدون في الأرض.

لتفسدن في الأرض: جاءتْ هذه العبارة هكذا مُؤكّدة باللام، وهذا يعني أن في الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه، فكأن الحق سبحانه يقول: ونفسي لتفسدن في الأرض، إن المعنى: ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكّداً، لا يستطيع أحد الفِكَاك منه، ففي هذا معنى القسَم، وتكون هذه العبارة جواباً لـ " قضينا "؛ لأن القسَم يجيء للتأكيد، والتأكيد حاصل في قوله تعالى: وقضينا.

والإفساد: هو أن تعمد إلى الصالح في ذاته فتُخرجه عن صلاحه، فكُلُّ شيء في الكون خلقه الله تعالى لغاية، فإذا تركتَه ليؤديَ غايته فقد أبقيته على صلاحه، وإذا أخللْتَ به يفقد صلاحه ومهمته، والغاية التي خلقه الله من أجلها.

مرتين: تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين، وفي أيّ فترات التاريخ حدثتا، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم في حضْن الإسلام، فإنْ كان الفساد مُطْلقاً. أي: قبل أن يأتي الإسلام فقد تعدَّد فسادهم، لكن الله عز وجل حدد مرتين بالعدد فقط. التفسيرات على أن الفسادَيْن سابقان للإسلام، والأَوْلى أن نقول: إنهما بعد الإسلام، وسوف نجد في هذا رَبْطاً لقصة بني إسرائيل بسورة الإسراء.

قالوا: لأن الإسلام حينما جاء كن يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين في المدينة كانوا يقولون لهم: لقد أظلَّ زمان نبي يأتي فنتبعه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم. لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم: إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك، وأنك صادق، ويعرف علامتك، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

ويقول أحدهم: لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد، لأنه قد يشك في نسبة ولده إليه، ولكنه لا يشك في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لِمَا قرأه في كتبهم، وما يعلمه من أوصافه، لأنه صلى الله عليه وسلم موصوف في كتبهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

إذن: كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا، وكانوا مستشرفين لمجيئه، وعندهم مُقدِّمات لبعثته صلى الله عليه وسلم. وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من يهود بني النضير، وبني قَيْنقاع، وبني قريظة، الذين خانوا العهد مع رسول الله، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، ونصُّ الآية القادمة يُؤيِّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام. ولننتقل إلى الآية رقم 5.. يقول تعالى: {فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً}

فإذا: ظرف لما يستقبل من الزمان، كما تقول: إذا جاء فلان أكرمته، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء في قصة طالوت وجالوت، وأن الإفساد الثاني جاء في قصة بختنصر.

جاء وعد: والوعد كذلك لا يكون بشيء مضى، وإنما بشيء مستقبل.

أولاهما: أي الإفساد الأول.

بعثنا: البعث يدل على الخير والرحمة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في حال اعتداء، بل في حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق.

عليكم: تفيد العلو والسيطرة وهذا ما كانت عليه دولة الإسلام الوليدة في المدينة المنورة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

عباداً لنا: وفي هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا في حضن الإسلام؛ لأن كلمة {عِبَاداً} لا تطلق إلا على المؤمنين، أما جالوت الذي قتله طالوت، وبختنصر فهما كافران. قال الشعراوي رحمه الله: "وقد تحدّث العلماء في قوله تعالى: {عِبَاداً لَّنَا..} فمنهم من رأى أن العباد والعبيد سواء، وأن قوله (عِبَاداً) تُقَال للمؤمن وللكافر، وأتوا بالأدلة التي تؤيد رأيهم حَسْب زعمهم."

فرأي الشيخ الشعراوي أن كلمة العباد تطلق على المؤمنين وكلمة العبيد تطلق على كل الناس، فيقول الشعراوي بأن عباد وعبيد كلاهما جمع لكلمة عبد، وأن الناس كلهم عبيد الله في أصلهم غير مخيرين، ثم وضعهم الله في وضع الاختيار بين الطاعة أو المعصية، فمن كفر وعصى يبقى من العبيد أما من آمن وأطاع يرتقي ليصبح من العباد.

هذا عند الحديث عن أهل الدنيا، ففي الدنيا يملك الإنسان أن يكون من العبيد أو من العباد، أما عند الحديث عن يوم القيامة فالناس كلهم مطيعون مئة بالمئة فليس هناك مجال للاختيار فالناس يوم القيامة كلهم عباد الله، وهذا ما يرد على أدلة من قال أن كلمة عباد تطلق على المؤمنين وعلى الكفار سواء.

وهذا التفريق اللغوي الدقيق الذي توصل له الشعراوي رحمه الله يوضح لنا أن الأمة التي يبعثها الله على اليهود لا بد أن تكون أمة مؤمنة، وهذا لا ينطبق على طالوت وعلى بختنصر. ولاحظ كلمة "لنا" تدل كل الدلالة على أن هؤلاء العباد من المؤمنين لدرجة أن الله نسبهم إليه بشرف عال القدر والمنزلة.

أولي بأس شديد: أي أصحاب قوة ومنَعة، وهذه كانت حال المؤمنين في المدينة، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل، وليس حال ضعفهم في مكة.

فجاسوا خلال الديار: من جاسَ أي: بحث واستقصى المكان، وطلب مَنْ فيه، وهذا المعنى هو الذي يُسمّيه رجال الأمن " تمشيط المكان ". وهو اصطلاح يعني دِقّة البحث عن المجرمين في هذا المكان، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر، حيث يتخلل المشط جميع الشعر، وفي هذا ما يدل على دِقّة البحث، فقد يتخلل المشط تخلُّلاً سطحياً، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها.

أي: تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم أحد منهم، وهذا ما حدث مع يهود المدينة: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، ويهود خيبر، وأتم هذا طرد سيدنا عمر بن الخطاب لليهود من شمال جزيرة العرب إلى الشام، وأنه حتى عندما دخل بيت المقدس، جاء في العهدة العمرية التي كانت بينه وبين نصارى القدس أن يمنع اليهود من دخول القدس وذلك حسب طلب النصارى الذين تأذوا كثيراً من اليهود طيلة العهود السابقة.

وكان وعداً مفعولاً: وَعْد صدق لابد أن يتحقق؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به، وإياك أن تظن أنه كأي وَعْد يمكن أنْ يَفِي به صاحبه أو لا يفي به؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْداً: سألقاك غداً مثلاً. فهذا الوعد يحتاج في تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به، إنما إذا كان الوعد ممَّنْ يقدر على الإنفاذ، ولا تجري عليه مِثْل هذه العوارض، فوعْدُه مُتَحقِّق النفاذ. وبالانتقال إلى الآية رقم 6.. قال تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً}

ثم: حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي، على خلاف الفاء مثلاً التي تفيد الترتيب مع التعقيب، فلم يَقُل الحق سبحانه: فرددنا، بل { ثُمَّ رَدَدْنَا } ذلك لأن بين الكَرَّة الأولى التي كانت للمسلمين في عهد رسول الله، وبين هذه الكَرَّة التي كانت لليهود وقتاً طويلاً، فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون، منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن حدث وَعْد بلفور، الذي أعطى لهم الحجة لقيام دولتهم في فلسطين، وكانت الكَرَّة لهم علينا في عام 1967 ميلادي، فناسب العطف بحرف العطف " ثم " التي تفيد التراخي.

رددنا لكم: جعلنا لبني إسرائيل الغَلَبَة والقوة والنصر على المسلمين وسلّطناهم عليهم؛ لأنهم تخلوْا عن منهج ربهم، وتنازلوا عن الشروط التي جعلتْهم عباداً لله.

الكرة: الغلبة من الكَرِّ والفَرِّ الذي يقوم به الجندي في القتال، حيث يُقدِم مرة، ويتراجع أخرى.

عليهم: أي المسلمين بعد أن ابتعدوا عن منهج الله.

وأمددناكم بأموال وبنين: وفعلاً أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رؤوس المال في العالم كله، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلِّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات، وفي كل المجالات.

وجعلناكم أكثر نفيراً: النفير هو مَنْ يستنفره الإنسان لينصره، والمراد هنا الدول الكبرى التي ساندت اليهود وصادمت المسلمين. وإلى الآية رقم 7.. قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ

فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً}

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها: ومازال الخطاب مُوجّهاً إلى بني إسرائيل، هاكم سُنّة من سنن الله الكونية التي يستوي أمامها المؤمن والكافر، وهي أن مَنْ أحسن فله إحسانه، ومَنْ أساء فعليه إساءته.

فها هم اليهود لهم الغَلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على المنهج، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله؛ لأن هذه سُنّة كونية، مَنِ استحق الغلبة فهي له؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزّه عن الظلم، حتى مع أعداء دينه ومنهجه، والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله.

وقوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنتُمْ..} فيه إشارة إلى أنهم في شَكٍّ أنْ يُحسِنوا، وكأن أحدهم يقول للآخر: دَعْكَ من قضية الإحسان هذه.

فإذا جاء وعد الآخرة: أي إذا جاء وقت المرة الثانية، وفي الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا، وستكون لنا يقظة وصَحْوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم، وعندها ستكون لنا الغَلبة والقوة، وستعود لنا الكَرَّة على اليهود، وكلمة الآخرة تدلُّ على أنها المرة التي لن تتكرر، ولن يكون لليهود غَلَبة بعدها.

ليسوؤوا وجوهكم: أي نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم؛ لأن الوجه هو السِّمة المعبرة عن نوازع النفس الإنسانية، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر، وهو أشرف ما في المرء، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة.

وليدخلوا المسجد: أي أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى وسينقذونه من أيدي اليهود.

كما دخلوه أول مرة: المتأمل في هذه العبارة يجد أن دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود، بل كان في أيدي الرومان المسيحيين.

فدخوله الأول لم يكُنْ إساءةً لليهود، وإنما كان إساءة للمسيحيين، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى، وهو في حوزة اليهود، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم المسجد الأقصى، ونُطهِّره من رِجْسهم.

أن القرآن لم يقُلْ ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج، إذاً فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لِنُبوءَة القرآن، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى معنى: إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحوا معه.

وليتبّروا: يُهلكوا ويُدمِّروا، ويُخرِّبوا ما أقامه اليهود وما بنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة الباطلة الزائفة التي نشاهدها الآن عندهم.

ما علوتتبيراً: القرآن لم يقُلْ: ما علوتُم، إنما قال {مَا عَلَوْاْ} ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم، وإنما بمساعدة من وراءهم من أتباعهم وأنصارهم، فاليهود بذاتهم ضعفاء، لا تقوم لهم قائمة، فهم أذلاء أينما وُجدوا، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون في ظِلِّه، كما كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويُعاونونهم.

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهُويّة لا تذوب في غيرهم من الأمم، ولا ينخرطون في البلاد التي يعيشون فيها؛ لذلك نجد لهم في كل بلد يعيشون به حارة تسمى " حارة اليهود " ، ولم يكن لهم ميْلٌ للبناء والتشييد، كل جماعة منهم في أمة تعيش عيشة انعزالية، أما الآن، وبعد أنْ أصبح لهم وطن قومي في فلسطين على حَدِّ زعمهم، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد.

ونحن الآن ننتظر وَعْد الله سبحانه، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا، ونعود إلى ساحة ربنا، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى، وتكون لنا الكرّة الأخيرة عليهم، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس حقيقية، لتعود لنا صِفَة العباد، ونكون أَهْلاً لِنُصْرَة الله تعالى.

وباتجاهنا إلى الآية رقم 104 التي تكمل هذه الفكرة.. قال تعالى: {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً}

وقلنا من بعده لبني إسرائيل: أي قال الله لليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام.

اسكنوا الأرض: أي أن الله أراد لهم أن يظلوا مبعثرين في جميع أنحاء الأرض مفرقين في كل البلاد، فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم، كثيراً ما تثار بسببهم المشاكل فيشكوا الناس منهم ويقتلونهم.

فإذا جاء وعد الآخرة: وهي الإفسادة الثانية التي أخبرنا بها الله في بداية السورة.

جئنا بكم لفيفاً: أي أتى بهم الله جميعاً يضم بعضهم إلى بعض، فهذه إذاً بشرى لنا معشر المسلمين بأن الكرة ستعود لنا وأن الغلبة ستكون في النهاية للإسلام والمسلمين، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن نعود إلى الله ونتجه إليه.

وهذا دليل على أن ما نعيشه الآن هي المرة الثانية، فاليهود يتجمعون الآن من كل أنحاء الأرض في أرض فلسطين كما أخبرنا الله في هذه الآية.

الخلاصة: ينبئنا الله في كتاب العزيز بأن اليهود سيفسدون مرتين، وهاتان المرتان سيكونان بعد نزول هذه الآيات، التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعد حادثة الإسراء.

كانت المرة الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فينقضون العهود ويخونون ويكفرون برسالة سيدنا محمد ويكذبونه رغم أنهم يعرفونه من خلال كتبهم، ثم بعد ذلك يحاولون قتله عليه الصلاة والسلام والتآمر مع أعدائه عليه وعلى المسلمين، فيطرد منهم ويقتل منهم من يقتل، ويستمر نفيهم وملاحقتهم في الجزيرة حتى عهد خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيطهر شمال الجزيرة العربية منهم ويمنعهم من دخول القدس.

وبعد ألف وأربعمئة عام من ذلك يبتعد المسلمون عن منهج ربهم ويحتكمون لغير شريعته، فتعود الكرة لليهود مع ما يمدهم الله به من مال وبنين وتآزرهم قوى العالم المختلفة فيعودون إلى بلاد المسلمين وتجتمع كلمتهم لأول مرة من بعد سيدنا موسى عليه السلام في دولة قوية يؤسسونها في فلسطين ويحتلون القدس.. ونحن الآن نعيش هذه المرحلة.

ووعدنا الله أننا عندما نعود إلى دينه وشريعته سينصرنا عليهم ونطردهم من القدس وندخل المسجد الأقصى كما دخله المسلمون الأوائل في عهد سيدنا عمر بن الخطاب.

المراجع

جامع البيان في تفسير القرآن للطبري – تفسير سورة الإسراء

الكشاف للزمخشري – تفسير سورة الإسراء
مفاتيح الغيب، التفسير الكبير للرازي – تفسير سورة الإسراء
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – تفسير سورة الإسراء
تفسير القرآن الكريم لابن كثير – تفسير سورة الإسراء
أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي – تفسير سورة الإسراء
تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي – تفسير سورة الإسراء
فتح القدير للشوكاني – تفسير سورة الإسراء
في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب – تفسير سورة الإسراء
خواطر في القرآن الكريم للشيخ محمد متولي الشعراوي – تفسير سورة الإسراء
سلسلة تاريخ القدس وفلسطين للدكتور طارق السويدان – الشريط الثاني عشر

تم بعونه تعالى والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله